# شاعر الغرباء وحنين العودة

## (تحية للشهداء في ذكرى يوم الأرض)

كثيرا ما تتلازم الأسماء والدول بمسمياتها ومدلولاتها في علاقة وشائجية وتوليدية فحين تُذكر اليمن – مثلا – تتدفق في شراييننا حضارتها وسدودها، و«الإيمان يمان والحكمة يمانية»، وحين تذكر فلسطين والثورة والمقاومة يُذكر معها الشاعر هارون هاشم رشيد شاعر الثورة واللاجئين وشاعر الغرباء كما يصفه عدد غير قليل من النقاد، وهو حامل بريق النضال والجمال والحرية، عاش ألم المشردين وذاق مرارة الاغتراب ووحشته، وسكنته هموم وطنه، وسافر كالسندباد في كل مكان، ولكنه كان في كل فضاء يحمل في وجدانه الجريح وطنه المجروح، ويدق بقصائده الأجراس حتى ينتبه الغافلون والنائمون عن قضية الأمة:

فيصحو على شعري السادرون...
ويستيقظ النفرُ النوّمُ

فشعره في مجمله شهادة عصر وحياة قضية، يستلهم مادته من تحولات فلسطين وآهاتها ومساراتها، همه الوطن، ولغته الوطن، وغايته الوطن، فلسطين لا غير محبوبته ومعشوقته عبر رحلة الكلمة ومسيرة الشعر، ليس لديه من الوقت ما يضيعه في إشكالية الحداثة واللغة الغامضة، فقضيته الواضحة لا تحتاج إلى الإبهام، وصراع القديم والجديد في الشعر لا يهمه، فالشعر لديه نبض واضح مؤثر، ورسالة جلية، غنّى للوطن لترابه وحقوله وسمائه ومائه وإنسانه، نادى أمته – وما زال – أن تنهض، وتهبّ لنجدة محبوبته فلسطين، وهي في انتظارها (كبينلوب في أوديسة هوميروس تنتظر المخلِص) ؛

د. إبراهيم أبو طالب

هي لا تزال حبيبتي العذراء.. تحلم.. تنتظر
لا قيمة لديه للإنسان بلا وطن حر:
ما قيمة العيش والأوطان ضائعةٌ... يعدو على قدسها الباغي ويغتصبُ
وهو يرقبها دون نفاد صبر:
تظل العين شاخصة إليك وليس تنتقلُ
فتلمحُ كيف من ليل الخرائب يشرق الأملُ
لم يفقد الأمل للحظة واحدة فهو زاده، وهو المقاتل بالقصيدة، وحين نسأله لماذا الشعر ؟! يرد:
لأن الشعر يدفعنا إلى أوطاننا صفّا
ويبقينا على العهد الذي لا يعرفُ الخوفا
يصرخ في العرب صرخته التي تُسْمعُ من به صَممُ:
صمدنا في انتظاركمُ وما زلنا وننتظرُ
هنا امرأة تشق الثوبَ صارخةً وتنفجرُ
أما من نخوة فيكم تضجُّ بكم وتبتدر؟!
هنا طفلٌ نما في الشوك لا فَرْحٌ ولا سَمَرُ
ولا علم، ولا زاد، ولا ماءٌ، ولا ثمرُ
صورةٌ قاتمةٌ ونداءٌ مُوْجَعٌ، ومُوْجِعٌ في نفس الوقت لكل نفس عربية مسلمة أبية ما تزال تتوق للحرية ولمعنى النخوة، فمن لهذه الأخت الفلسطينية العربية المسلمة التي تشق الثوب صارخة منفجرة، هل نكتفي بالقول لك الله يا أختاه ولطفلك؟؟!!.

وهاهو ذاَ الشاعر يعرّف بنفسه في كل لقاء قائلا:
أنا ماذا أكون بلا اسمي فلسطيني
بلا وطنٍ أعيش له وأحميه ويحميني

**شعاره في كل لقاء وعبر كل منبر مقولته الدائمة «نعم أنا فلسطيني وشعري لفلسطين ولكل جرح عربي» استقرت في ذاكرة الشاعر صورة اللاجئين ولم تبرح مخيلته في صحو أو منام، فجسدها في أول دواوينه الشعرية (مع الغرباء) ١٩٥٤م وصف حالهم، في مشاهد بالغة الدلالة والمأساة، وهم يُنقلون عبر البحر، وكيف تركت صور الأطفال الحيارى والأمهات المفجوعات والآباء الذين لا يملكون من أمرهم إلا الحزن والعجز، كيف ترك كل ذلك بصماته في مخيلة الشاعر ورؤيته، فانطلقت ثورة الكلمة في شعره واصفة كل ذلك البؤس والفجيعة والحزن، ومن أجمل ما كتب الشاعر قصيدته التي أسمى بها ديوانه (مع الغرباء) وهي بحقّ القصيدة المأساة كما يصفها بعضُ النقاد واستحق بها لقب شاعر الغرباء، هذه القصيدة ذات مستوى فني راق، يذكر الشاعر في كتابه (إبحار بلا شطآن) قصة إبداعه لهذه التراجيديا والظروف التي أحاطت بميلاد تلك الرائعة الشعرية فيقول:**

« كان (البريج) من أكثر المعسكرات التي ارتبطتُ بها، واستلهمتها، وقد توثقت عُرى المحبة والصداقة بيني وبين عديد من الأسر التي رافقتها.. وتعرفت إليها يوم انتقالها إليه... وفي يوم من عام ١٩٥٠م عدتُ من المعسكر بعد زيارة لإحدى أسره وفي أذني كلمات لصبية أفضت بها إلى والدها تتساءل: لماذا نحن أغرابٌ ؟ كانت السماء ملبدة بالغيوم الداكنة المحملة بالمطر، وما أن وصلتُ إلى غرفتي، وتخففتُ من ملابسي وأويت إلى فراشي باحثاً عن الدفء حتى بدأت أكتب قصيدة «مع الغرباء»:

« أتت ليلى لوالدها
وفي أحداقها ألمُ
وفي أحشائها نارٌ
من الأشواق تضطرمُ... »

إلى آخر تلك الرائعة التي غناها كل العرب وشدو بها على صوت الفنانة فيروز الصوت الملائكي الرائع، ويظهر في معظم قصائد هارون هاشم رشيد علاقة الشعر بالمكان التي هي علاقة وجود وانتماء عند بعض الشعراء – وهو أحدهم –، أو علاقة اغتراب وانفصال حتى وإن كان مقيمًا فيه عند البعض الآخر نلمس تلك الحميمية والتماهي مع المكان وبه في شعر هارون هاشم رشيد من خلال التكريس للمكان في شعره فما من بقعة على الأرض الفلسطينية إلا ونجد لها في شعره ظلا، وليس أدل على ذلك من أنه قد أفرد في دواوينه– التي بلغت حتى عام ٢٠٠٥ واحداً وعشرين ديوانا – لكل مدينة منها ديوان، فللقدس ديوان، ومثله لغزة، وآخر ليافا وهكذا..، هذا فضلا عن القصائد التي تحتويها تلك الدواوين والتي تحمل خصوصية المكان وآلامه وأحلامه.

وقد عاش الشاعر عبر ثمانين عاما من الإبداع المتجدد يضع ملامح صورته على بطاقة الهوية التي سيراها كل العرب وكل عشاق الكلمة، كل الباحثين عن صوته الفلسطيني وعن وطنه الذي يعرفه، وهو سفيره للعالم:

« تعرفني مقاعد الدرس بها
والدورُ والحاراتُ
كما فراشة
كنت أهيم في سمائها
أنقل الخطوات
أحمل حبي الكبير
في جوانحي
وأنشد الأبيات
تعرفني الشمس بها
ويعرف القمر... »

ومع كلمات الشاعر القوية كان هنالك اللحن حاضرا وعبر مائة وخمسين مقطوعة شعرية تغنى بها كبار المطربين والملحنين العرب منهم: فيروز وفايدة كامل، ومحمد فوزي، وكارم محمود، وآخرون وما تزال أغنية ( سنرجع يوما إلى حينا) حاضرة في الوجدان العربي لأنها صيغت من الضوء والحزن والأمل:

سنرجعُ، خبّرني العندليب... غداة التقينا على منحنى
بأن البلابل لما تزل... هناك تعيش بأشعارنا
وما زال بين تلال الحنين... وناس الحنين مكان لنا
فيا قلبُ كم شردتنا رياح... تعال سنرجعُ هيا بنا

وكان النثر رفيق الشعر في مسيرة نضال وطنية للشاعر هارون هاشم رشيد حيث ألّف العديدَ من المسرحيات، والمسلسلات الإذاعية أبرزها (مثلث الرعب)، والحب في سخنين)، و(مدينة وشاعر)، و(المساجد في الإسلام)، و(يمهل ولا يهمل) وكلها كانت تبث من إذاعة صوت العرب من القاهرة، وتناولتها بعد ذلك عدد من الإذاعات العربية في السبعينيات من القرن العشرين، وأما الرواية فقد قادته إليها القصيدة أيضا فقد كتب قصيدة مرثاة للشابة «راشيل كوري» الفتاة الأمريكية التي قتلتها الجرافة الصهيونية، وهي ترفض أن يُهدم بيتٌ فلسطيني، فوقفت شامخة لتقول لا للظلم، وتبذل روحها فداء لمبدأ العدل وحقوق الإنسان، وكيف أن هذه الفتاة الآنسة (٢٤ عاما) قد جسّدتْ الإنسانية بكل معانيها الكريمة المناهضة للآلة الإسرائيلية الظالمة، «راشيل كوري» تتبّعَ الشاعر قصتها وحياتها، فحولها من قصيدة كتبها على إثر حادث الموت إلى رواية كاملة صدرت عن دار الشروق، وهي في طريقها للسينما والتلفزيون لتروي بالوثائق حياة تلك الشهيدة الأمريكية من أجل فلسطين.

وكثيرا ما تحدث الشاعرُ عن غضب القصيدة، ومتى يغضب بالكلمة ولها ؟، وهو العربي والعروبي الذي لم يفقد الأمل في أمته العربية والإسلامية وإن غضب منها مرة أو مرات، فإنما ذلك غضب الذي يستنهض عروق الكرامة التي كادت تجف ولكنها – في تقديره – لم تنضب، وسيظل يغني، ويعزف على آهاتها حتى تستفيق ورسالة الكلمة الشعرية، وموقفها لا يقل نفاذا عن الرصاصة في تحرير الأوطان، والانعتاق من الظلم والقهر، وذلك في طريق العودة التي لطالما تغنى بها ولها الشاعر، وغدًا سيغنيها معه كلُ بطلٍ مؤمنٍ بأن الحق لا يضيع، وكأننا جميعاً نسمعُ وقع النصر وخطاه حين نضع الراية كما قال الشاعر:

يا راية الشوق حُطّي هاهنا انغرسي... فقد وصلنا هنا أمٌ لنا وأب
وإنّا لواصلون إن شاء الله، ما دام في الأمة من أمثال هؤلاء الشباب الذين واجهوا الصلف والنار الصهيوني المقيت بصدورهم العارية إلا من إيمانهم بقضيتهم وعدالة مطلبهم، وروح الحق الذي لا يضيع مهما اعتقد مغتصبه أنه قد استحوذ عليه، فإن الحق هو الأبقى، وصاحبه هو الأقوى، «وسيعلمُ الذين ظلموا أي منقلبٍ ينقلبون».

## « بدء الهمى رعد »

زياد السالمي

إلى روح الشهيد رعد السالمي طيب الله ثراه الذي استشهد عند أداء واجبه الوطني في مدينة عدن ..عزاءً لي قبل والده صديقي الشاعر محمد أحمد السالمي

رعدٌ لما غادرتَ يا رعدُ كأن محمداً بالحزن لا يبدو
هل كان إلا الموت من ألوانه موج الحياة الجزرُ لا المدُ
قل لي : أيعطي النحل فضلة جنيه ..؟ أم هكذا يستعذب الشهدُ؟
أم يصطفي طلُّ الصباح فمَ الدجي أإن يلتبس في كفِّه الصدُ..؟
ويزفُّ دفء اللحن عن مفتونه شجنٌ لمن لم يكوِهِ الوجدُ..؟
أم أنها الدنيا رهان تهدهدٍ ما بينه يطوي المدى البعدُ؟
تنأى بعيداً عن تأملنا كما ينأى بضوء عيوننا السهدُ

○○○○

بل جئت من وطني إلى مستمطري/ وطني بشير الخير فاستهدوا
لا لم أمُتْ كالآخرين وإنما موتي ليحيا الشعبُ والعهدُ
أوهبتُ روحي شامخاً مستذكراً قولَ الأُلى : بدء الهما رعدُ
في واجبي قدّمتُها متشرفاً كي يحتفي بي الكفل والجدُ
طفلاً بأخلاق الرجال نما وفي عيني أبيه الحُلمُ والمَجدُ
طوبى لأم أنجبته على الفدى / طوبى لأمٍّ بابنها الوعدُ
يكفي الشهيد حياتُه في موته يعلو وليس لأفقه حدُ

عفواً لقد أخجلتني لكنّه قلقُ المحبِّ إذا انتوى الوردُ.

# أبي.. سأظل أحبك

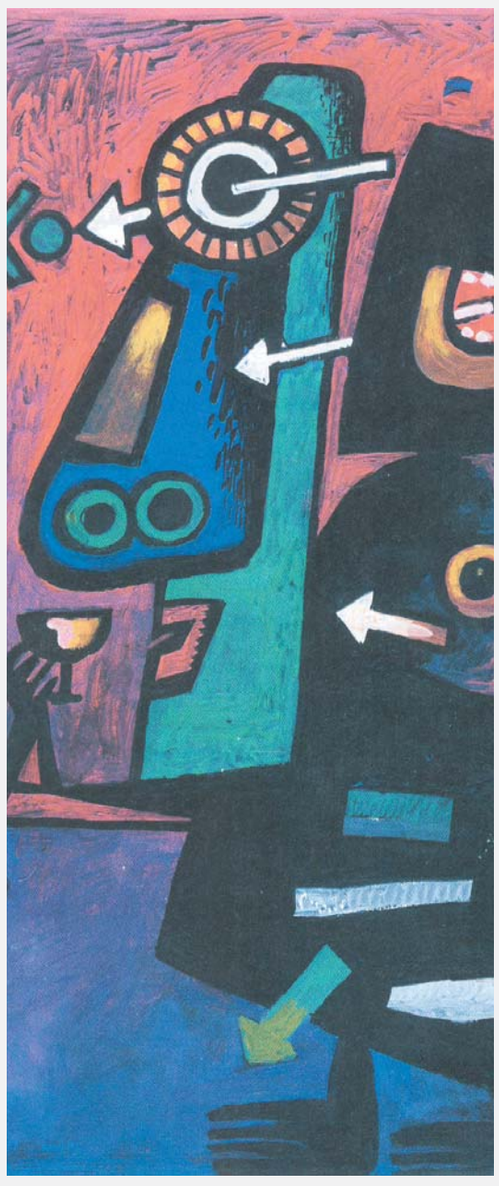

● أصواتهم مرتفعة جدا تثير إزعاج رواد المتنزه تتسكع الشلة غير مبالين بشعور من حولهم .. نظرات الناس تحاصرهم وتنتقد سلوكهم وثيابهم المزركشة والضيقة وغير المتناسقة ... يبدو ان الشباب مندفعين ولا يهتمون بتعليقات المارة والنظرات الشاردة والوجوه المتجهمة .. يستهزي رمزي بالشلة : ما كنت اعرف قبل اليوم أنكم عندكم بعض الذوق ! ، فالمنتزه جميل ونظيف ونسمات البحر وأمواجه ترسم منظر رومانسي .. والمهم ان الصيد متوفر بكثرة .. يضحك حتى تعلو قهقهته المكان .. ينظر لفتاة جميلة ويصرخ : غوده سمينه تنظر له الفتاة بطرف عينيها بازدراء .. لكن الشلة لا تنزجر بل تزيد عربدتهم ومضايقتهم للنساء ، وكلما رأوا فتاة زاد استعارهم للظفر بالمزيد ..

فائز سالم بن عمرو

بينما يتوسد رمزي بمرفقيه كتفي صديقيه متوسطا الشلة وهم يمشون بتبختر وكبرياء معرقلين حركة السير ومتسببين في الزحام يقع نظره بالصدفة على رجل ستيني اسمر طويل مسرح الشعر ومهندم ممسكا بيد فتاة بيضاء جميلة ممتلئة يبدو عليها صغر السن بوضوح .. ما ان يرى الرجل الفتى المزعج الطويل صاحب القبعة الزرقاء حتى يدفع يد الفتاة بقوة وعنف يكاد يخلع يدها ويوقعها على الأرض وسط دهشة الجميع وتذمرهم وسخريتهم ؟؟ يعدّل رمزي مشيته بسرعة ويتخلص بحركة عنيفة من وضعيته ويواصل السير بهدوء وصمت قاتل .. تنفجر الأفكار والأسئلة في رأسه ، وتصرعه الدهشة وقسوة الموقف .. يتوقف عقله عن العمل ولا يستطيع ان يفهم ما يحصل له .. يشغل نفسه بالتفكير في أشياء أخرى ،.. يتخيل منظر آخر ؟ ، يعجز وتظل الصورة المؤلمة محفورة في قلبه ومطبوعة في عينيه .. لا يمكن ان ينساها وهي التي ستشكل حياته وقدره .. من هذا الرجل ؟ أبي .. غير ممكن .. نعم هو أبي دون شك ... ومن تلك الفتاة الصغيرة والجميلة التي يمسك يدها الناعمة والنضرة ؟! .. هل يعقل ان يكون أبي بعد هذا السن .... ؟! وتنفتح شهية الشيطان ليرسم له منظر سيئ ويمطره بأسئلة خبيثة ومريرة ... يضع يده على رأسه بشده ممسكا بشعره بتحسر وندم .. لا يفهم أصدقائه ما حصل لزميلهم وينظرون له بدهشة واستغراب .. ينادونه بصوت هادئ يزداد نبرة.. رمزي ما بك ، هل حصل لك مكروه ، يا بو الشباب اذكر ربك ؟ صلي على نبيك ؟ .. طيب رد علينا فسر لنا ما حصل ؟! ، يربت احدهم على بهدؤ ما بك ؟ ، أخفتنا عليك ؟ لأول مرة نراك في هذا الموقف ؟! .. يدفع يد صديقه عن ظهره ويواجههم والدموع تنسكب من عينيه صارخا فيهم : انتم السبب ؟ انتم السبب ، لن أسامحكم أبدا ، وينطلق مسرعا تاركا أصدقائه في حيرة واضطراب واضح ؟!..

لا يشعر رمزي بنفسه إلا مستلقيا على كثبان رملي وكان أصوات هدير أمواج البحر تعزيه وتخفف من حزنه قليلا .. ما هي إلا لحظات حتى تعصف به ريح الوساوس ويستعيد المنظر .. يخالجه شعور بالحزن ويصاحبه شعور بالحب ويدرك معنى الأبوة .. للمرة الأولى يظهر له بان يحب أبيه بعنف .. يستدعي المشهد ويتذكر علاقته الفاترة والمتفاوتة بابيه .. على الرغم من عدم الانسجام التام بين رمزي وأبيه لاختلاف السن والتفكير بينهما ، إلا انه يدرك انه يحبه ويحترمه ويعتبره قدوته .. لكن ليس بعد اليوم ؟! .. يسال نفسه مهما تصنعت الحب والاحترام لن تعود صورة أبي كما في السابق وستظل أبوته وصورته مهزوزة عندي فقد سقطت هيبته من قلبي ..

ينسل رمزي إلى فراشه وينزوي تحته تاركا أمه وإخوته وأهله في خوف وفزع .. يتسالون عما حدث له فهو يرفض الكلام والحديث مع احد .. تضع أمه يدها على رأسه متحسسة ما يؤلمه ، وتخاطبه ترجوه ان يجيبها ، يخرج من صمته مكرها ويحتضنها بقسوة ولا يخاطبها إلا بدموعه .. تهرع فزعة لتخبر زوجها بان ابنها إصابته عين أو سحر .. يتنهد ويطرق بنظره إلى السقف .. تصرخ الأم : ما لك يا رجل لا تهتم بشان ابنك ؟ .. يتلعثم ويجيبها : دعيه لحاله لعله يريد الانفراد بنفسه فمشاكل الشباب كثيرة ..

تمر الأيام دون فائدة فتأثير تلك النظرة اللعينة يزداد ويكبر في ذهنه وتعيق التواصل بينه وبين أبيه ... تتغير حياته كثيرا .. يفقد روح الشباب والرغبة في الحياة والانطلاق ويكتفي بالجلوس في الحارة .. لا يتردد إلا على المسجد والبيت .. حتى في المدرسة يظل منزويا وشارد الذهن فاقدا للتركيز .. تختلف حياته كليا بعد هذه النظرة العابرة .. لم يعد يهتم بلباسه وتأنقه .. يترك شلته والسهرات والرحلات .. تظهر أثار السنين وتتراكم عليه الهموم وتتغير هيئته وشكله ومظهره وحياته ..

يتجنب رمزي النظر إلى والده وتفتر العلاقة بينهما .. فإذا دخل غلاب إلى مكان خرج منه الابن .. يحاول ان يكون طبيعيا عند الحديث إلى والده ولكنه يشعر بأنه يتكلم أو ينظر لرجل غريب لم يعرفه قط .. عندما يجلسان على مائدة الطعام يسترقان النظر لبعضهما كأنهما لا يتعارفان .. يشعر بان شخصية أبيه وهيبته سقطت من نفسه .. أين أبي ذاك الرجل الشديد الذي يفرض أوامره على الجميع والذي يعطي نصائحه وملاحظاته .. كنت أتصور أبي شيئا كبيرا لا يمكن ان يخطئ أو يغلط أو يفعل مثل ما فعل .. يتضايق يتألم يؤنب نفسه ويحس بان وجوده في البيت يضعف من شخصية أبيه ومكانته ويهز هيبته عند أفراد الأسرة .. لم يعد يشعر بأنه فرد من الأسرة وانه المتسبب في مشاكل العائلة .. ويخبر نفسه من أنا حتى احكم على أبي ؟ وأملي عليه تصرفاته ؟ ، أليس أبي يشعر بالندم والحزن كلما راني .. أصبح أبي رجلا آخرا في البيت وعند إخوتي .. غادرته الابتسامة والضحك .. وكل أفراد الأسرة يلاحظون تغيره أحواله وتصرفاته .. أنا من تسببت في إحراج أبي وأذيته .. يحب ان يغادر احدنا المنزل .. ويفترض ان أكون أنا ؟ المفترض ان تعود هذه الأسرة إلى وضعها الطبيعي ...

تصحو الأم في صباح يوم الجمعة لتجد غرفة رمزي فاضية وخالية من ملابسه وحاجياته .. تسرع لتخبر زوجها بان رمزي ترك المنزل .. فيلبس ثيابه على عجل ليجد في جيبه رسالة مكتوب فيها الآتي :

أبي الحبيب .. لا أعرف في الدنيا شيئا جميلا مثلك
أبي الحبيب .. افتخر بك واحبك وأتفاخر بك بين زملائي
أبي الحبيب .. أرجوك سامحني لم أرد التدخل في حياتك أو ان افرض عليك نمط حياتك
أبي الحبيب .. لم استطع النسيان وحاولت لكني لم استطع
أبي الحبيب .. تركت البيت لأجد لي ولك فرصة لان ننسى ما حصل ونتجاوزه ..
أبي الحبيب .. مهما حصل سأظل احبك ... أبي .. سأظل احبك ..